الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى إخواني في السّودان شماليين وجنوبيين، شرقيين وغربيين راجيًا أن يساهم في لمّ شملهم وتوطيد جمعهم.

والله وليّ التوفيق وهو يهدي السبيل.

إمباي لو بشير

obeikan.com

obeikan.com

تقديم وتأطير الدراسة

تسعي هذه الدراسة إلى مراجعة العلاقة المطّردة بين كيانات ثلاثة هي: أمريكا، الإسلام والسودان. قد تبدو عضوية هذه العلاقة للناظر إليها هاشة أو شفافة أو قل منعدمة؛ لكنها بالتحليل الدقيق، وبالتدبر في ماهيات كلّ منها، وبالأخص فيما آلوا جميعا إليه هذه الأيام؛ لا يملك المحلل إلا أن يضع نصب عينيه ثلاث حقائق، قد يؤدي فهم وتحليل كل منها إلى فرضيات يمكن مناقشتها.

أولا: أن الخطاب الأمريكي في الآونة الأخيرة رسميا كان أم شعبيا، اتسم باعتبار الإسلام الراديكالي ـ أو على الأجدر باتهام الإسلام السياسي ـ منبعا للعنف وعدم التسامح والإرهاب، أو ما أسماه نائب الرئيس الأمريكي الأسبق، ديك شيني بالتهديد الأخضر (Green Menace).

ثانيا: إنّ الثقافة الأمريكية السياسية الحديثة تؤمن بمثالية مساندة الأقليات الدينية والعرقية، ودعم قضايا المرأة ونجدة السياسيين المستضعفين؛ واستئصال أسباب اللجوء والنزوح سياسية كانت أم اقتصاديّة.

ثالثا: إن دور أسامة بن لادن وجماعة القاعدة في هجمات ١١ سبتمبر جعل أية علاقة سابقة بالرجل محل شك، إن لم نقل مدعاة «للجرح والتعديل» من قبل السلطات الفيدرالية الأمريكية.

وبناءا على هذا التحليل تصح فرضيات القول بأنه أولا: الرؤية الأمريكية للإسلام تؤثر سلبا أو إيجابا في سياستها تجاه السودان؛ الذي يتبنى النظ الإسلامي، ثانيا أنّ استقبال السودان لأسامة بن لادن في بداية التسعينات، وإس يد العون له؛ وكون السودان يوما ما موطنا لقيادة القاعدة، فإن السياسة الأمري

التي فشلت في اقتياد الرجل سوف تبقي شاكة في نوايا السودان وأهدافه؛ إذن، هذه العلاقة بين البلدين قد تتحكم فيها سياسة تتبع أعوان ابن لادن السابقين ومعاقبتهم بمن فيهم السودان.

رابعًا: إنّ مشاكل السودان الداخلية في دارفور، وجنوب البلاد، وما نتجت منها من مظاهر اللجوء و النزوح و النزاعات العرقية والحروبات الإثنيّة وضعت السودان على منظار الاهتمام الأمريكي، وذلك راجع إلى الصدى الذي تحدثه هذه القضايا في الإعلام الأمريكي، و بالتالي في حياة الأمريكان اليوميّة.

المقصود بأمريكا ؟

في البدء يحسن الفصل بين أمريكا كشعب وأمريكا كدولة، فالشعب هنا نقصد به الجمهور الأمريكي البالغ تعداده قرابة ٣٠٠ مليون نسمة، مقسمين بين هنود حمر، أسيويين، أسبانيين Hispanic ، سود و بيض، وهي أيضا ثالث أكبر دولة في العالم من حيث السكان بعد الصين والهند، كما تمثل طبقات اقتصادية متباينة.

وكذلك تنخرط هذه الطبقات في كتل سياسية وجماعات ضغط متنوعة، وفي أكثر الأحايين متباينة، وهذه التكتلات «Lobbies» غرضها التأثير على طريقة تفكير المشرعين، أو أهل السياسة، إما لتأييد أو معارضة اتجاه معين، ودوافع مجموعات الضغط هذه قد تكون دينيّة، تجارية، عقدية، عرقية إلخ.

واهتمام الشعب الأمريكي بالسياسة الخارجية محدود، وفي الحقيقة يحكم هذا الاهتمام مدى تأثير السياسة الخارجية، بأوضاع البلاد الداخلية أو بالأحرى مدى تأثر الأوضاع الداخلية بهذه السياسات، ومن هنا اشتهرت المقولة الأمريكية «كلّ السياسة محليّ» (All Politics is Local). والثقافة الأمريكية الحالية قائمة على تشجيع التنوع، والمغامرة، والهجرة، فبقاء المرء على مستوى معيشة أوليائه يعتبر فشلا في الحياة و١٧ في المائة من الأمريكان يغيرون سكناهم سنويا من ولاية

لأخرى، والسياسات الخارجية لأمريكا تغيرت جذريّا منذ الحرب العالمية الثانيّة؛ فأمريكا دولة كانت أسست على الاعتزالية Isolationism))، وتلك الفكرة أيضا ظاهرة في جغرافيتها وتاريخها واكتفائها الذاتي، بيد أنّ التطورات في آسيا في الخمسينيات ثمّ في الشرق الأوسط في التسعينات والعراق في التسعينات، ثمّ هجمات ١١ سبتمبر قد غيرت هذه المعادلة جذريّا في تاريخ أمريكا الحديث؛ حيث إنّ الهجوم على نيويورك وواشنطن و بنسلفانيا تبعته مسلسلات الغزو في أفغانستان والعراق وحضور دائم في سماء اليمن و الصومال و كذلك منطقة الصحراء الكبرى.

أما أمريكا كدولة :

فحدّث ولا حرج، وكما يقول جيمس مدبسون، مهندس النظام الفدرالي الأمريكي، فانّ «هذه دولة لها مصالح دائمة، ولا أصدقاء دائمين.» لم يمكن جيمس مدبسون يتحدث عن فراغ، بل كان يحلل الأوضاع في غياهب القرن الثامن عشر، وهي الفترة التي تعتبر أهم فترة في بناء هذه الدولة الجديدة، وهي فترة شهدت نزاعات دامية بين المستعمرة المستقلة وبين بريطانيا، و كذلك الحرب بين المستعمرة ومكسيك من الخارج، وتوسعا تجاه الغرب على حساب الهنود الحمر، وفي هذه الفترة أيضا توطد وضع الدين في الثقافة الأمريكية؛ حيث تمّ الحفاظ عليه على المستوى المحلي وكجزء أساسي في الثقافة الأنكلوساكسونية البروتستانتينيّة: فلكل شخص دينه، إن أراد ولكن لا دين للدولة، يجب الفصل بين الدولة والدين. وقد ذكر الرحالة والمحلل الفرنسي أليكسيس دي توكفيل في كتابه: «الديمقراطية في أمريكا» بأنه كان للدين والكنيسة دور بنّاء في بناء الدولة الأمريكية على المستوى المحلي حيث ساهمت الكنيسة مباشرة في مساندة المشاريع الخيرية والتنموية بغض النظر عن إمكانيات أو مسئوليات الحكومة أو الدولة.[1]

(1) Alexis de Tocqueville, Democracy in America. New York: A. S. Barnes & Co., 1851.

وهي فترة تمّ فيها أيضا تقنين تجارة الرق داخليا، والبتّ في أنّ الرجل الأسود الرقيق يساوي ثلثي الرجل الأبيض الحر، وهي أيضا فترة سُنَّتْ فيها القوانين والتقاليد السياسية التي مازالت تحكم النظام السياسي الأمريكي وأهمها: الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، ثمّ إعطاء حق الفيتو للسلطة التنفيذية، وهي فترة تم فيها تفعيل مقولة توماس جفيرسون في مقدمة وثيقة الإعلان عن الاستقلال حين كتب:

«ونحن نشهد بالآتي كحقائق مطلقة تُدْرك بكلّ بساطة، وهي أنّ الناس خلقوا سواسية، وقد أضفى خالقهم عليهم بحقوق الحياة، الحرية، والبحث في سبل السعادة، ولأجل المحافظة على هذه الحقوق، أقيمت الحكومة بين الناس؛ وتستمدّ سلطاتها الشرعية من موافقة المحكومين. وعليه، كلما أساءت الحكومة استخدام هذه العهود، يصبح من حق الناس مقاومتها، أو إنحاؤها أو استبدالها بأخرى جديدة.»[1].

وهنا يحسن القول بأنّ البحث عن سبل السعادة يعتبر ركيزة أساسية للثقافة الأمريكية قديمها وحديثها، وقد لا أكون بعيدا عن الصواب إذا قلت أنه الإطار الذي يرتكز عليه فهم الأمريكان للحياة من حولهم «البحث عن سبل السعادة» ولو على حساب النفس، على حساب الآخر، موت الآخر، تدمير الممتلكات وتدمير الآخر نفسه.

ولأجل هذا السعي الدؤوب شاركت أمريكا في الحرب العالمية الأولى والثانية لحماية طرق تجارتها مع الحلفاء؛ ولأجل هذا السعي خاضت أمريكا الحرب الباردة ضدّ الروس، ولأجلها أيضا بدأت حروب الخليج الأولى والثانية. هذا على المستوى الخارجي، وأما على المستوى الداخلي فحدّث و لاحرج، «فالبحث عن سبل السعادة»

(1) United States Declaration of Independence. Authored by Thomas Jefferson et al, created in July 1776.

فرز ثقافة العنف والعنترية في أوساط الأمريكيين. وهذا ما جعل H. Rap Brown ، المناضل الأفريقي الأمريكي يقول: «إنّ هويّة العنف أمريكية الأصل مثلما هو يوم استقلالنا – الرابع من يوليو.» وفي تقديمه لكتاب ما، ربط الأستاذ سمير أمين مفهوم العنف الأمريكي بمفهوم العنف الرأسمالي القائم على استغلال الآخر. وهناك الكثير من الدراسات التي تثبت بأنّ الرأسمالية قائمة على فلسفة العنف الاقتصادي الذي يعاف الرحمة والرأفة بالكادحين ولا يولي جهدا في سبيل إثراء النفس واستغلال الغير.

والفيلم الوثائقي الذي ظهر في عام ٢٠٠٩ للكاتب والمخرج الأمريكي مايكل مور، عمّا أسماه «الرأسمالية: قصة حبّ،» إنّما يشير إلى هذا الحبّ للعنف بكل معانيه لأجل الثروة والثرا وهذا، طبعا، سعيا وراء السعادة، هذه النقطة مهمة جدا في دراستنا للسودان وتأطيره في بوتقة السياسة الأمريكية الحديثة.

هذا الكتاب هو دراسة للفرضيات الثلاثة التي أشرنا إليها مسبقا.

وهي تمثل فصول الكتاب، و بالتحديد: الفصول الثلاثة التي تناقش الثقافة السياسيّة الأمريكية، الإسلام في أمريكا والسّودان في الذاكرة الأمريكيّة. والدّراسة تمثل تحليلا لهذه القضايا مستندا على فهم المؤلف لهذه القضايا، باحثا في ثناياها ومعايشا لتداعياتها الإقليميّة والدوليّة، ونرجو أن يساعد هذا الجهد المتواضع في تقريب وجهات النظر، وأن يساهم في إيجاد حلول لهذه المشاكل الطاغية على قضايا الفكر السياسي الحديث[1].

(١) تناولت هذا الموضوع باستفاضة في كتابي القادم. وسوف ينشر قريبا في دار جامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم. و اسم الكتاب:

Reforming Higher Education in Africa: the Case of IUA